روافع المجتمع ..

للأستاذ محمد محمود زيتون

لم تعد الدراسات الاجتماعية عقودا من إرشادات ونصائح ، أو فرائد من أفكار مرتجلة هي بضاعة ذوى المآرب في الدعاية لأشخاصهم والترويج لمبادئهم أو أحزابهم . مضى كل ذلك مع أمس الدابر ، يوم أصبح المجتمع في نظر العلم الحديث موضوعا للمقاييس ومجالا للمناهج ، وميدانا للقوانين العامة أقصى ما يكون العموم . . وبذلك كان الاجتماع البشرى آخر معقل من معاقل العرفان غزته جيوش العلم واتخذت منه معسكرا

وليس أدل على ذلك من قوانين الاقتصاد التي أصبحت رموزا ومعادلات جبرية تسير بمقتضاها الظواهر الاجتماعية كما هو معروف في قوانين العرض والطلب ، وقانون «ملتوس» في تزايد السكان . وانضوت البحوث السيكولوجية – هي الأخرى – تحت لواء العلم منذ وجدت النزعة العلمية الحديثة أرضا خصبة لها في كل مكان

وهـذا علم الاجتماع لم يشذ عن هذا المضمار ، فقد ميز فيه «دوركيم» جانبين هامين هما «الاستاتيكية» و«الديناميكية» شأنه في ذلك شأن الكهربائية في جانبيها «الذاتى» و«الانتقالى» ، واعتبر النشاط الاجتماعي عن ظواهر أو وقائع Faits ينظر إليها العلم على أنها «أشياء» choses من حيث خضوعها للحواس من جهة ، والمقاييس من جهة أخرى . ثم من حيث أنها تسير حسب قوانين صارمة لا تتخلف ، وعلى الباحث أن يجد في كشف هـذه القوانين المضارعة لقانون الضغط مثلا ، فإنه لم يكن قد اكتشف بعد ، بينما آثار الظواهر لا تنكر

وقد حرصت المدرسة الاجتماعية الفرنسية الحديثة على طبع فروع العلم الاجتماعي بهذا الطابع العلمي الخالص ، وظهرت آثار هـذا الحرص فعلا في دراساتها لعلوم الأخلاق والسياسة والدين والقضاء والجمال

وإذا كان «دوركيم» قد اقتبس من الفلك والكهرباء والفزياء والكيمياء على أوسع نطاق ، فلا حرج علينا إذا اتخذنا

في تحيز أفسد عليهم الرشد والنزاهة ؛ وأصبحت العقيدة الدينية بفضل هـذا الصراع علما على الإيمان الساذج سذاجة الجهل والتعصب الأعمى الذي تبثه ديكتاتورية الكهنوت في العقول الساذجة والقلوب القانعة نشأت . ولم تقتصر هذه الوصمة على الأديان التي تطورت من الخرافات والأساطير، وإنما شملت الأديان السماوية التي أوحى بها الله إلى رسله وأنبيائه

وأصبحت الفلسفة ونظرة الطبيعيين إلى الحياة والمادة علما على التحرر والفكر الطليق ولكن هـذا الانطلاق (كما بينا في مستهل هذا البحث) لم يستطع أن يزعزع الإيمان الصادق أو أن يطوح بالنزعة الدينية والطمأنينة والاستقرار الذي يهيمن على من يختبرون في صدق الحياة الدينية . وبازدياد الصراع بين العقل المجرد والعقيدة الدينية ازدادت البلبلة الفكرية والفوضى الأخلاقية وتعرض المجتمع إلى مشكلات لم تكن الفلسفة ولا العلم الطبيعي مستعدين لمعالجتها

فإذا نشأت في العالم اليوم نزعة إلى التوفيق بين الحياة الروحية والظواهر الطبيعية والحقائق الاجتماعية فما ذلك إلا لأن هذه الأمور جميعها تؤثر في حياة الفرد والمجتمع

وسنحاول في الفصل القادم أن نتعرف جوهر العلاقات بين هـذه الأمور متابعين البحث في النتائج الاجتماعية للاختبار الديني ومجارين بذلك هذا الاتجاه الجديد في التفكير الغربي الذي أقلقه تطور العلوم الطبيعية التي قطعت صلاتها بالقيم الأخلاقية التي يبشر بها الدين فأنتجت القنابل الذرية والمشاكل النفسانية التي تعبث بمجتمع مفكك الأوصال مشحون بالفوضى والقلق

نيويورك — للبحث صلة — محمد عليوه

من الميكانيكا استعارة صريحة نستعين بها على فهم المقومات العامة للمجتمع الموزون في قواه الداخلية والخارجية

وتتركب الرافعة - وهي نوع من الميزان كما تعلم - من محور الارتكاز والقوة والمقاومة ، ولا يستقيم الميزان إلا إذا تحققت المعادلة الآتية أيا ما كانت الرافعة : القوة في ذراعها تساوي المقاومة في ذراعها

والروافع ثلاث كنا نحفظها ونحن تلاميذ بالسنة الثالثة الابتدائية بناء على طلسم خاص هو (رمق) . فالقاف رمز القوة . والميم رمز المقاومة والراء رمز محور الارتكاز ، ثم إن هذا الطلسم بوضعه هذا يكون مفتاحا لأنواع الروافع

فالنوع الأول يكون فيه محور الارتكاز بين القوة والمقاومة

والنوع الثاني تكون فيه المقاومة بين محور الارتكاز والقوة

والنوع الثالث تكون فيه القوة بين محور الارتكاز والمقاومة

ولهذه الروافع الآلية فوائد عملية للانسان ، فهي تنفعه في التغلب على القوى الكبيرة باستعمال قوى صغيرة . وروافع المجتمع أشبه بروافع الطبيعة في بساطتها وتعقيدها . وليس يخفى أن الحياة الاجتماعية إنما هي تفاعلات مستمرة بين عناصر لاحد لها ولا حصر ، ومن أبرزها عوامل الجغرافيا والتاريخ والدين والاقتصاد والسياسة والأخلاق والعلم والصحة والجنس واللغة

ومن العبث أن نعتبر المجتمع مكونا من أفراد كما نعتبر الجدار مجموعة من قوالب مرصوصة على نحو أو آخر ، ذلك بأن الإنسان شخص لا فرد ، والفرق بين الشخصية والفردية مداره تكامل الجهاز العصبي ، ذلك التكامل الذي يبلغ أقصاه عند الإنسان ، ويندرج تحته سائر الأحياء في سلم النشوء والارتقاء ، ولذلك يقال في البيولوجيا إن الأرنب فرد لأن سلوكه طائش ، بينما الكلب شخص لأن سلوكه ذاتي . ومعنى ذلك أنه كلما كان سلوك الحي متدرجا في الرقي مع مرونة الجهاز العصبي ، كانت له شخصيته التي بها يعرف ويمتاز

وليست هذه « الشخصية العنصرية » حجر عثرة في سبيل « التكامل الاجتماعي » كما يبدو لأول وهلة ، فإن الميول الفطرية العامة من أهم العوامل في تحقيق هذا التكامل بين الأشتات ، وذلك التقارب بين العناصر . وإنه لمن اليسير أن تتلاقى الأهواء والميول وفاقا لقانون « الجاذبية الاجتماعية » ذلك القانون المستمد من الطبيعة السيكولوجية . والذي يوحي بأن حياة المجتمع أشبه ما تكون بحياة القطيع ، يرى الفرد نفسه منساقا إليه ، مدفوعا معه مثل « خروف بانورج » في القصة المعروفة

فإذا كانت الغرائز هي تلك القوى الفطرية والأسس الأولى للسلوك ، فإن الميول العامة هي القوى التي يبنى عليها المجتمع ، وهي لا تظهر بوادرها إلا بوجود الإنسان في المجال الاجتماعي ، وتلك الميول هي ما يعبر عنها بالإيحاء والمحاكاة والمشاركة الوجدانية

وأقرب مثل لذلك مرادق منصوب ، فيه خطيب متحمس يخطب في جمهور من الناس مختلفين في الأفكار والنزعات والأهواء ، ومع ذلك سرعان ما يتفق الجميع على رأي الخطيب عن طريق « الإيحاء » ويساير البعض رأي البعض الآخر في التصفيق والهتاف عن طريق « المحاكاة » ويتأثر الجميع بانفعالات الخطيب من غضب أو فرح أو حزن عن طريق « المشاركة الوجدانية » ولولا وجود هذا المجتمع ما كان لهذه الميول أن تظهر في الفرد

بهذا يسهل التقريب بين عناصر المجتمع ، ويتم التكامل الذي به تختزل الصعاب أمام الإصلاح ، ويتبلور الرأي العام ، فيستطيع المشرعون أن يستمدوا منه القوانين الصالحة لأنها تطابق الآمال المشتركة والأهداف العامة

وعلى ضوء هذا كله نتساءل : ما هي روافع المجتمع ؟ أو بعبارة أخرى ما هي العوامل التي ترفع من شأن المجتمع حتى يكون الفرد والمجموع على وفاق تام بالنسبة للمثل العليا في مرافق الحياة الكريمة . فلا يضطرب الميزان الاجتماعي ؟

أما المجتمع الأول فهو الذي يقوم « العلم » فيه مقام محور الارتكاز في الرافعة الأولى ، وتكون « الأخلاق » بمثابة القوة ، و « التاريخ القومي » بمثابة المقاومة . ولا شك أنه في مثل هذا المجتمع تتعادل مخلفات الماضي مع آمال المستقبل ، كما تتعادل الكفتان في الميزان . ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم الذي يبصر المواطنين بمآثر أسلافهم فيتخذون منها دعامة لصروح المجد الذي ينشدونه ، ولا يدفع المجتمع بعيدا نحو أهدافه غير

خلاق ، فإذا كانت مهمة العلم تنوير العقل ، فإن مهمة الأخلاق قل الضمير ليبغى الخير وينشد الحق

ولهذا يجب أن تكون « الكفالة الأخلاقية » واجبا عاما وم به المسجد والكنيسة والجامعة والمدرسة والمنزل والشارع، لمسرح والسينما والصحافة والإذاعة ، والمقهى والملهى ، الأخلاق فى المجتمع قوة رافعة دافعة ، مما يتحتم معه على هذه ـوائر أن تتولى أمرها جميعا ، فلا تختص بها هذه دون تلك ، المجتمع وحده أن يحكم لأيها يكون الفضل فى تنقية الضمائر ، ترقية الغرائز ، وتعلية النوازع

والمجتمع الرفيع هو الذى يدرك العالى من أقرب طريق أبسط جهد ، ومن أجل هذا اخترنا له هذا النوع من الروافع لاجتماعية إذ تتكافأ القوة مع المقاومة ويتسابق إلى القمة تراث لأمس وهدف الغد على غير نفرة بينهما أو شذوذ ؛ إذ هما أشبه ضلعين متساويين فى مثلث متساوى الأضلاع ، قاعدته الثابتة العلم لراسخ بحقائق الأمور

ولا يخفى أن البعد أو القرب من محور الارتكاز يرجع إلى مقدار تكافؤ القوة والمقاومة ، وتبعا لذلك تكون رسالة العلم سريعة الأداء إذا توافرت الذخيرة الأخلاقية ، وتعددت القوى والأثقال، وعندئذ فقط تستجيب القوات المتضاربة ، وتضطر إلى المعادلة، وإلا اضطرب الميزان ، واختلت روافع المجتمع ، وشالت كفة ورجحت أخرى

والمجتمع الذى من هذا النوع يشبه « الكماشة » لأن محور ارتكازه « العدل » الذى يوطد أركانه قوة مطلقة من « القانون » وهنا فقط نستطيع التغلب على « الجريمة » التى لن تفلت من فكى الكماشة ما دامت عين القانون ساهرة ، وقادرة على التوغل فى كل وكر تتسلط أنوارها الكشافة على جسم الجريمة بصرف النظر عن المجرم مهما تكن قرابته أو عصابته أو مكانته ، بل الكل سواء بلا تفريق

والمجتمع الثانى هو الذى تكتمل فيه عناصر الرافعة الثانية ، فتكون المقاومة بين محور الارتكاز والقوة ، كما فى « كسارة البندق » حيث ترتكز على مفصلها ، وتوضع البندقة قريبا من المحور ، وتضغط اليد على أقصى الطرفين لتحاول كسر البندقة التى تقاوم حسب استعدادها ، وتبعا للضغوط المتتالية عليها

وفى رافعة هذا المجتمع يكون « الاتحاد » قوة و « السياسة » مقاومة ، ومحور ارتكازها هو « الاستقلال » فإذا ارتكز المجتمع على الاستقلال التام استطاع أن يقاوم مقومات تقدمه ، وأن يفك الأغلال والأصفاد التى تحول بينه وبين الانطلاق ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتضافر الأفراد واتحادهم جميعا كأصابع اليد الواحدة فى قبضتها على يد الكسارة ، وعندئذ لا يكون لإصبع حق فى ادعاء الظفر ، وإنما الفضل للوحدة المتصلة لا للفرقة المنفصلة

وعوامل الاتحاد فى المجتمع الرفيع ميسورة لا تستعصى على الإمكان . أليس الدين يدعو إلى وحدانية الله واتحاد العباد ووحدة القبلة ؟ أليس العلم فى مجمله ومفصله يفترض العقل الذى هو أعدل الأشياء توزعا بين الناس ؟ .. أليست الحقيقة متمثلة فى حاصل جمع عددين أو باقى طرحهما، وإنه إذن لصواب أو خطأ، ولا مجال لجدال

والاستقلال فى ذاته رفعة ، وبالنسبة للجهاد وسيلة رافعة ، لأن الفرد المستقل هو المجتمع المستقل عاجلا أو آجلا ، ولن يكون ذلك إلا بكشف الأغطية عن العقل المفكر ، ورفع الكمائم عن الأنفاس الحـــرة ، وطرح المخدرات المقوتة عن الأنوف الشامخة ، بعيدا بعيدا ، والحذر من المسكنات التى لا يقصد منها غير الاستهلاك المحلى . ولابد من الارتكاز على الاستقلال فى قوة واتحاد لإتحاد التعصب والتحزب ، وإحباط التعالى على الغير وازدواء أقدار الرجال إلى غير ذلك مما يقوم مقام البندقة من الكسارة ولا يعلم صلاحها أو فسادها إلا بالكسر

ومكافحة الموقات السياسية من أيسر اليسر ، فليس أقل من التفرقة بين السياسة والاستقلال ، والفصل بين الوطنية والحزبية، لهذا كان طول ذراع القوة مؤذنا بأن قليلا من القليل يكفى لكسر البندقة التى قد يتراءى قربها من محور الارتكاز باحتقار شأنها ، فى حين أن قصر ذراعها يستلزم الضغط ، وهو إن بدا

من بعيد غير شديد إلا أنه كفيل بتفتيت قنبلة ذرية ، وليت الناس يعلمون حق العلم قانون الروافع الاجتماعية ، إذن ما ضلوا سواء السبيل ، ولا تكالبوا الشطط مع بعضهم بعضا ، ولا كلفوا أنفسهم وأوطانهم مشقة الاحتيال على المشاكل المعلقة بينهم وبين أعدائهم وخصومهم

وهذا المجتمع يشبه « عربة الكناس » وقد امتلأت بالأقذار ، وهو يدفعها أمامه ، وهي تندفع على عجلة من حديد ، وعجيل ذات اليمين وذات الشمال ، وهو من هزاله يميل معها كما تميل ، ويحاول أن يقاوم هذه القذارة الثقيلة ، ولكنه مرغم على احتمال المكروه في سبيل الجلاء ، الجلاء التام

ذلك هو شأن المجتمع الهزيل النحيل الذي يكافح الاستعمار والحماية والاحتلال ، ويرتكز على عجلة الزمن : تدور فتطوى الطريق ، وهو وراءها ليس له أن يسبقها أو يدعها تكر بين يديه من غير دفع مستمر

يا له من كناس يقبض بيديه على نعش العدو ، يشيعه إلى خارج البلد إلى غير رجعة ، والأيام تطاوعه ، فلا ينبغي له أن يستعجل الجلاء ، ففي العجلة الندامة ، وحسبه أن عجلة الظلم لا تدور مع الأيام ، فليعتمد على ضعفه ليكون هو القوة .. إن ذلك من عزم الأمور

إن المقاومة القذرة ، والبطش الكافر ، والاستبداد العنيف ، كل ذلك مطرود من كل بيت ، ملفوظ من كل كوخ ، ولا يستقيم مع نظافة العيش ، وسلامة الطريق . وباليقنا نتفهم فلسفة هذا الكناس الذي عرف كيف يبدأ وأين ينتهي ، لم يتكل على أن القذارة ستزول من بيته ما بين طرفة عين وانتباهتها ، بل نهض وشمر عن ساعد الفقر والجهل والمرض ، لينعم بالغنى والعلم والصحة .. إنها حركة وفيها بركة ، إنها كاسحة نازحة ، وعما قريب تكون الفاتحة ، والمجتمع المرفوع هو الذي خيره لا مقطوع ولا ممنوع ، وشر عدوه دائما مقلوع لا مزروع .

الزمن محور ارتكاز ، وإن طالت الآماد بين حلو الشهداد وخرط القتاد ، على أن المصير معروف مألوف . فالظالم والعدوان سينقلبان أسوأ منقلب ، وبعدها الحرية التي لا حدود لها ، والنظافة التي لا بعدها ، ومن ذا الذي لا يود أن يغدو ثقيلا ليروح خفيفا ، أو أن يكافح عدوه ليعود سيد نفسه ، أو أن تكرهه الأيام على جر العربات ، لتكون له وحده الثمرات

أما المجتمع الثالث المرفوع ، فما أشبهه « بلاقطة الجر » ، ولن يستغني المجتمع عن هذه الرافعة في التقاط كل جرة متقدة من العلوم والفنون ، وكل ألوان الحضارة ، ولا يكون ذلك إلا بالارتكاز على « الحرية » في الأخذ والعطاء ، بحيث لا تأخذ بالجبر ، ولا تعطى بالقهر ، ولن تكون الحرية مكفولة إذا فتحت الأسواق لكل بضاعة من غير تدخل يراد منه الصيد في الماء العكر ، لكساد بضاعة صالحة ، والترويج لأخرى فاسدة ، وليكن قانون الجميع « البقاء للأصلح »

هذه الحرية لابد منها في تبادل النفع المشترك بين الشعوب الراغبة في السلام ، الساعية في الخير ، ومع هذا فإن « الشر » سيقاوم هذه الغاية النبيلة ، ولن يكون عنصرا فعالا في المقاومة إلا إذا طال واستطال ، وأدمن في المطال ، كما تقاضته الإنسانية ضريبة الحياة ، والشرقوة لا محالة ، ولكن سرعان ما يمحى في ظلال الحرية ، وعلى جمرات العلوم والمعارف

مجتمع هذه رافعته جدير بأن يكون أفراده يدا واحدة ، تقاوم الرذائل والشرور بل تبطش بها البطشة الكبرى حتى لا يضار بها المجتمع . ولعمري لئن كانت هذه اليد بمثابة المقاومة في الرافعة فإن محور الارتكاز اللازم هنا إنما يكون الدين المتين ، الدين الذي يمتد سلطانه المشروع إلى كل مرفق من مرافق الحياة المعلقة بيد الله ، وعندئذ تكون « الأمانة العامة » هي القوة الدافعة للمغريات حينما تتكاثر وتتثاقل على اليد البيضاء بالرشوة والسرقة والاحتكار والاستغلال ، فتدفعها عنها في إباء وترفع يرتفع بهما المجتمع بأفراده إلى المثل العليا

هذه هي روافع المجتمع ، فلينتظر كل فرد أين هو من هذه المجتمعات ، وعليه أن يرتفع بالتدريج إلى المقام الرفيع الذي يكون فيه المجتمع وأفراده متكافئين في الميزان . وذلك هو الهدف الذي لا مطمح بعده من رفعة ، ولا حاجة وراءه من روافع

محمد محمود زيتونه